كنوز ورموز

رافقت المجوهرات الإنسان في رحلته عبر الحياة منذ الحضارات الأولى، وحملت رموزاً ذات أهمية كبرى، منها ما كان شعبياً وشائعاً ومنها ما أحيط بهالة من السر والغموض.

نص | هلا الخوري

ضجّت وسائل الإعلام في شهر

مارس الماضي، بخبر الهدية الفريدة التي قدّمتها أنجلينا جولي لبراد بيت، وهي قلادة قيّمة مرصعة بالألماس تتضمن رسالة سرّية. كانت جولي قد أوكلت مهمة صنع القلادة لصديقها مصمم المجوهرات روبرت بروكوب الذي استوحى تصميمها من التمائم الفرعونية وحفر النص فيها مستعيناً بأحدث تقنيات الليزر بحيث يستحيل قراءتها إلا بواسطة المجهر. ويبقى محتوى الرسالة سراً لا يدركه سوى الحبيبين والمصمم الكتوم.

ساد اعتقاد في الحضارات الأولى بأن المجوهرات والأحجار الكريمة تتمتع بقوى سحرية. فاستخدمت التمائم الفرعونية منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد على شكل قلادات كوسيلة للحماية من الشر وتعزيز الخصوبة. وبعد مرور آلاف السنين، ظل التراث الفرعوني يلعب دوراً ملحوظاً في عالم التصميم، وقد انطبعت به مجوهرات العهد الفيكتوري البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر، وهي حقبة شهدت كمّاً كبيراً من الاكتشافات الأثرية في مصر على يد عالم الآثار الفرنسي أوغوست ماريت وإنشاء قناة السويس. أدّت هذه التطورات إلى انتشار الرموز الفرعونية في المجوهرات الأوروبية انتشاراً واسعاً لدرجة أن الغالبية الكبرى من القطع المطروحة في معرض باريس عام ١٨٦٧ كانت تحمل رموزاً مستوحاة من حضارة مصر القديمة. ما هذا إلا مثال على توجّهات فن الصياغة في أوروبا خلال فترة كانت فيها المجوهرات تتحدث لغة خاصة وتحمل رموزاً ومعاني وأسراراً ورسائل، فكانت تارة لغة الإخلاص والحب وتارة أخرى لغة الولاء أو التمّرد السرّي.

في قلب العاصمة البريطانية، يزخر متحف فيكتوريا وألبرت الشهير بمجوهرات فريدة تفتح نافذة على تراث الحضارات السابقة. ولفك رموزها وأسرارها الدفينة، نتحدث إلى أمينة قسم المجوهرات كلير فيليبس التي توضح أن المجوهرات تنتمي إلى فن يتميز بدرجة عالية من الخصوصية، وأنها غالباً ما كانت تتضمن عناصر رمزية وسرّية أحياناً. وتضيف قائلة: "خلال القرن السابع عشر، شهدت فترة الحرب الأهلية الإنجليزية صناعة قلادات وخواتم تُخفي في طياتها صورة سرّية للملك تشارلز الأول، كان أنصاره من الملكيين يرتدونها. وفي حِقَب سابقة، كانت المجوهرات العائدة للقرون الوسطى غنية بالرموز الدينية، بينما لم تخلُ مجوهرات عصر النهضة بدورها من العناصر الرمزية".

> يزخر متحف فيكتوريا وألبرت الشهير بمجوهرات فريدة تفتح نافذة على تراث الحضارات السابقة

أما مجوهرات الفيكتوريين فاغتنت برموز يطغى عليها عنصرا الحب والصداقة. ولعل أكثر ما اشتهروا به في هذا المجال هو اعتماد لغة الأزهار القديمة التي بلغت أوجها في عهد الملكة فيكتوريا، ووُضعت قواميس لها تناولت المعاني المرتبطة بمختلف أنواعها. كانت ظاهرة تبادل باقات الأزهار الصغيرة أمراً مقبولاً اجتماعياً في تلك الحقبة، وغالباً ما كان الأحباء يستعينون بها كرسائل رمزية تتيح لهم التعبير عن مشاعرهم في مجتمع لم يسمح لهم بالإفصاح عنها علناً. ويقال إنه نظراً لأهمية التواصل عبر الأزهار، كانت فتيات المجتمع الفيكتوري المثقّفات على دراية واسعة بالدلالات التي تحملها تنسيقات الأزهار لدرجة أنهن كنّ قادرات على قراءة المعاني الكامنة في أية باقة كمن يقرأ شعراً.

انعكس شغف المجتمع الفيكتوري بالأزهار ولغتها على عالم المجوهرات، الذي شهد طفرة في صناعة قطع معقّدة مستوحاة من الطبيعة. وترددت أصداء هذا الأسلوب الرائع في العاصمة الباريسية، ما حثّ أوسكار ماسين، صائغ الأمبراطورة أوجينيه، على الانتقال إلى لندن لدراسة هذا الفن الجميل. وقد صمدت لليوم نماذج خلابة تجسّد ذروة الطراز الفيكتوري، منها قطع مرصعة بالألماس على شكل باقات أزهار متنوعة تتدفق بالمعاني العاطفية. فكانت براعم الورود تشير ⇐

الصفحة السابقة: عقد من الذهب والأحجار الكريمة يعود للعام ١٨٤٠، خاتم "غيميل". هذه الصفحة من الأعلى للأسفل: خاتمان يحملان رسالة سرية من مجوهرات شوباخ، بروش من الذهب والأحجار الكريمة يعود لعام ١٨٤٠.

إلى الحب السعيد وزهرة بنفسج الثالوث رمزاً للفكر بينما كانت زهرة أذن الفأر مرادفاً للحب الصادق. أما الألماس، فكان ولا يزال تجسيداً للحب الدائم.

تبنّى الفيكتوريون في مجوهراتهم مبتكرات من عصور سابقة، منها ما اكتنز أسراراً دفينة ومنها ما حمل رسائل واضحة، ومن أبرزها ظاهرة المجوهرات المرصعة بأحجار كريمة وفق ترتيب معيّن، بحيث تشكل الحروف الأولى من أسماء الأحجار كلمة تعبر عن المحبة أو الصداقة، وقد أدى ذلك لظهور مجوهرات مزدانة بتركيبات غير مسبوقة من الألوان. وفي هذا السياق، تعلّق كلير فيليبس بقولها: "إن تهجئة كلمتي 'عزيز' أو 'تقدير' عبر أسلوب أبجدية الحجارة الكريمة كان نهجاً شائعاً قبيل العصر الفيكتوري لكنه دام طيلة ذلك القرن، وكان من السهل على أفراد المجتمع التعرّف على رموز كهذه. لكن الأسلوب نفسه كان متاحاً أيضاً لتشكيل رسائل أخرى على درجة أعلى من الخصوصية". وما من شك في أن الدوقة ماري لويز استغلت هذه الفكرة ببراعة، ففي العام ١٨١٢ صُنعت لها ثلاث أساور نفيسة تحمل تاريخ مولدها ومولد نابوليون وتاريخ لقائهما وزواجهما باعتماد لغة الأحجار الكريمة.

شاعت المجوهرات الرمزية، من مشابك منمّقة وخواتم مزخرفة وحلي صغيرة، بين نساء المجتمع المخملي ورجاله على حد سواء. وإن رغب الرجل الفيكتوري بالإفصاح عن مكنونات قلبه علناً، أهدى خطيبته أو زوجته جوهرة على شكل قلب ذهبي مزوّد بقفل كدلالة على عبارة "تملكين مفتاح قلبي". وفي بعض الأحيان، كانت مجوهرات الحب تتخذ شكل عقدة أو آلة موسيقية أو طيور معشّشة. وكثيراً ما استعان الفيكتوريون بأشكال ترمز إلى تعابير فرنسية شائعة، باعتبارها لغة العاطفة آنذاك، ما دفع الصائغ ويليام تاسي لإصدار دليل في العام ١٨١٦، يحوي قائمة شاملة من الرموز والعبارات الفرنسية المرتبطة بها، مع ترجمتها للإنجليزية، ومن أبرز ما درج فيها هي قيثارة ذات أوتار مقطوعة رمزاً لعبارة "إهمالك يؤدي لخرابي".

لكن التذكارات لم تكن حكراً على المحبين فحسب، بل اعتُمدت كذلك كعربون للصداقة والتقدير. ولتبقى العروس حاضرة في أذهان صديقاتها بعد انتقالها إلى منزل الزوجية، كانت تهديهن مجوهرات تحمل شكل زهرة أذن الفأر أو حجر الفيروز كرمز لتلك الزهرة الزرقاء. ويُعرف عن الملكة فيكتوريا أنها أهدت المرافقات اللواتي تولّين حمل طرحة عرسها بروشاً ذهبياً صممه زوجها الأمير ألبرت على شكل نسر مرصع باللؤلؤ والفيروز إشارة للحب الصادق، والياقوت دلالة على العاطفة، والألماس رمزاً للخلود. علماً أن خاتم الخطوبة الذي قدّمه الأمير للملكة فيكتوريا صُمم على شكل أفعى، وهو رمز إغريقي قديم يشير إلى الحب الأبدي.

احتواء خواتم الزفاف على رسالة كامنة يزيد من وقع الشعور بالخصوصية بين الزوجين

منذ قرابة العام ١٨٧٠، شهد المجتمع الفيكتوري المحافظ توسعاً في انتشار القلادات ذات المقصورات السرّية، التي كانت شائعة منذ القرن السابع عشر. وكانت العلب الخفية تحمل صورة شخص كرمز للاحترام، أو خصلة شعر من شخص عزيز. علماً أن التقاليد الاجتماعية في عهد الملكة فيكتوريا كانت تحظر على الفتاة العزباء قبول مجوهرات تتضمن خصلة شعر من رجل لا يمت إليها بصلة القرابة. كانت خصلات الشعر تخبأ أحياناً في القسم الخفي من القلادة بعيداً عن أنظار الآخرين، أو تعرض خلف مقصورة ذات غطاء زجاجي. وقد اعتمدت في المجوهرات المخصصة لمرحلة الحداد، وهي ظاهرة بلغت أوجها في عهد الملكة التي ظلت في حالة حداد على زوجها الراحل حتى نهاية عمرها.

في فترة سابقة للعصر الفيكتوري، وتحديداً منذ منتصف القرن الخامس عشر، ظهرت خواتم معروفة باسم "غيميل" وهي عبارة مستمدة من كلمة توأم باللاتينية نظراً لأن الخواتم كانت مكوّنة من حلقتين متطابقتين. وكانت التقاليد تقتضي أن يرتدي كل من الخطيبين نصف الخاتم حتى حلول موعد الزفاف، ليعاد جمع القطعتين على شكل خاتم واحد. ولتجنّب إعادة صياغة هذه الخواتم، طوّرها الحرفيون لتصبح على شكل حلقتين أو ثلاث تتصل عند محور يتيح تحريكها بسهولة، وكانوا يكلّلونها أحياناً برمز يدين مشبوكتين يشار إليه باسم "فيديه"، أي حسن النيّة بالإيطالية. وكثيراً ما استغل أصحاب خواتم "غيميل" القسم الداخلي منها لحفر عبارات ورسائل معقدة يقتضي فهمها قراءتها بتأنٍ بالتسلسل الصحيح.

بعد عدة قرون على نشأة الخواتم ذات الأقسام الخفية، تعود هذه الظاهرة الرومانسية إلى مجتمعنا بحلّة جديدة. ويحدثنا الصائغ جوزيف شوباخ، أحد مبدعيها بقالبها المعاصر، فيقول: "لطالما سحرتني المجوهرات ذات القطع المتحركة، والتي تبدو على شكل معيّن في البداية، ثم تنكشف تفاصيلها الأخرى بعد التدقيق فيها". ويتابع شوباخ الذي ترجع خبرة شركته في مجال صناعة المجوهرات بحسب الطلب لأكثر من قرن من الزمن، أن احتواء خواتم الزفاف على رسالة كامنة يزيد من وقع الشعور بالخصوصية بين الزوجين، إذ يشعر الاثنان بأنهما يمتلكان سراً لا يعرفه سواهما، وربما النخبة من المقربين إليهما. ويعتقد شوباخ أن عنصر الجذب يكمن في هالة الغموض المحيطة بفكرة إخفاء الرسائل عن أنظار الآخرين.

لطالما كانت الشعارات الرمزية والرسائل الخفية جزءاً من ترات الشعوب على مرّ القرون، ويتوقع شوباخ بأن الإلكترونيات الدقيقة قد تلعب دوراً مستقبلياً في هذا النوع من القطع، ويقول: "قد نشهد ظهور مجوهرات مزودة برقاقات إلكترونية دقيقة وأجهزة استشعار بالأشعة تحت الحمراء، تُصمّم لتتعرف على رسالة متكاملة عند وضعها بالقرب من قطعة مماثلة".

ومن يدري ما قد يُتحفنا به المبدعون من أمثال شوباخ وبروكوب سيراً على خطى الصاغة التاريخيين، الذين مهّدوا الطريق لاحتمالات لا نهاية لها.

IMAGES Schubach Enterprises & V & A museum